موت الدوفين

للكاتب الفرنسي الفونس دودية

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

ولى العهد مريض . وإن الفناء لفى سبيله المبددة التى مهدتها يد المرض إلى بدن « الدوفين الصغير » ومن كل كنائس المملكة ومعابدها تعلو الصلوات حارة ، وتصعّد الدعوات خالصة أثناء الليل وأطراف النهار ابتهالاً وتضرعاً لشفاء الدوفين الصغير . وطرقات العاصمة القديمة تبدو هادئة هدوء القابر . يخيم عليها حزن ... حزن الثواكل . والنواقيس والأجراس تدق فتعلو دقاتها الحزينة المعولة تشق أجواز الفضاء صارخة متضرعة . والعربات ... إن سارت فعلى مهل تفادياً لما تُحدث من الجلبة والضجيج ... وتقاطر الأهلون جماعات جماعات يتطلعون فى فضول إلى الحراس والشامسة بنية التقاط أنباء المحتضر الصغير

القصر فى هرج ومرج ، ورجال البلاط يصعدون الدرج الرخامى ويهبطون فى سرعة شديدة ، وفى أروقة القصر وردهاته طفق وصائف الملك وندماؤه يروحون ويغدون فى قلق وحيرة مُرَدِّدين فيما بينهم ما جدّ من الأنباء الهامة والأخبار القلقة

الدوفين The Dauphin : لقب كان يطلق على أكبر أبناء ملوك فرنسا من سنة ١٣٤٩ إلى سنة ١٨٣٠

وانبثت وصيفات الشرف فى سائر الحجرات يعولن وينتحبن وهن بين الفينة والفينة يمسحن دموعهن اللألاءة بمناديلهن الموشاة المعطرة ...

* * *

اجتمع فى حجرة الدوفين المحتضر نفر من الأطباء المبرزين تبدو على وجوههم أمارات الحيرة الشديدة واليأس المرير ...

وراح المحافظ ووصيف « الدوفين » الخاص يذرعان الردهة جيئة وذهوباً أمام الحجرة فى قلق واضطراب منتظرين حكم القدر النافذ وكلمته القاضية ومَرّ بهما فى أثناء ذلك خدم المطبخ فلم يحيّوهما . وهل ثمة بال الآن لتدارك آداب التقاليد المرعية ؟ ولكن وصيف « الدوفين » الخاص سبهم سب المغيظ المحنق بينما غمغم المحافظ ينتف من أشعار هوراس ... ومن ناحية الإصطبل سُمِع صهيل جواد فى نبرات نائحة حزينة . إنه جواد الدوفين الصغير ، وقد أهمله الخدم ولا ريب ، فلم يقدموا له طعامه المألوف !

والملك ! ... أين جلالة الملك ؟ ! ... أجل ... إنه وحيد فى حجرة مقفلة ، نائية عن كل حجرات القصر ... إذ يجبُ ألاّ يُرَى ذوو الدم الملكى باكين معولين . أما عن الملكة فهذا شىء آخر . إذ جثت بجوار فراش المحتضر العزيز بعينين أترعهما الدمع السخين ، وإنها لتبكى وتنوح بصوت يفتت الأكباد كما تفعل أية امرأة أخرى فى هذا الموقف الصعب الشديد !

ورقد الأمير الصغير على سرير الموت بعينين مسبلتين ووجه أشد بياضاً من الوسادة التى غاص فيها رأسه الصغير ، وحسب الجميع أنه نائم ، وما هو بنائم ، إذ التفت نحو أمه الجاثية بجواره وقال حينما رأى دموعها الغزار :

— سيدتى الملكة ! لماذا تبكين ؟ أحسبك كالآخرين تظنين أنى سأموت حقاً ؟!

فحاولت الملكة أن تتكلم فخنقتها العبرات

— لا تبكى يا سيدتى الملكة ... إنك تنسين أنى ولى العهد . إن أولياء العهد لا يموتون بهذا الشكل ، ولا يؤخذون بمثل تلك السهولة

ودب دبيب الخوف فى قلب « الدوفين » حينما ألقى أمه تواصل النحيب . ثم قال :

— كفى يا سيدتى عن هذا العويل ، فلن أسمح للموت أن يأخذنى ، وإنى لمانعه عن الدنو منى إذا أتى . سُرى فوراً أربعين من رجالنا الأشداء فيحيطوا بسريرى ، وجهزوا المدافع الكبار تحت النوافذ وويل للموت إذا حضر بعد ذلك ! ...

فأصدرت الملكة أمرها بكل ذلك تحقيقاً لرغبة المحتضر الصغير . فلم تمض بضع دقائق حتى سمعت قرقعة عجلات المدافع فى الوسيد . وأحاط أربعون حارساً بالسرير مدججين بالسلاح . وعقد الدوفين ذراعيه فوق صدره وظل ينظر فى وجوه حراسه من الموت . فعرف أحدهم وناداه قائلاً :

— لورين ... لورين ... فتقدم الجندى نحو السرير خطوة . فأردف ولى العهد :

— إنى أحبك كثيراً يا جندى القديم لورين .. أرنى سيفك الكبير ... ستقتل الموت ولا مراء إذا أراد أن يأخذنى ! ... هيه ؟ ...

فأجاب الحارس وقد تحدرت دمعتان كبيرتان على خديه :

— أجل ... أجل يا مولاى ! ...

هنا أقبل قس ودنا من الأمير وكلمه طويلاً فى صوت يشبه الهمس ثم أراه الصليب ، فأصغى الأمير إليه فى دهشة عظيمة ثم قاطعه بقوله :

— لقد فهمت ... ولكن ... ألا يقبل صديقى الصغير « پيپو » أن يحتل مكانى ويموت بدلاً منى ونعطيه على ذلك أجراً كبيراً ؟ !

فعاد القس إلى حديثه المنخفض بينما أخذت أمارات الدهشة تمحى رويداً رويداً من وجه الدوفين الصغير ، وقال ولى العهد عندما انتهى القس من حديثه :

— محزن كل ماتقول ياسيدى . ولكن مايعزينى ويدخل على نفسى الصبر والجلد هو أنى سأظل فى الجنة ولياً للعهد . وإنى لأعلم أن الله هو ابن عمى . وسوف يحسن وفادتى ولا ريب لمنزلتى لديه

ثم نظر إلى أمه واستأنف الحديث :

— سُرى بأجمل ثيابى ، وبجميع لعبى ودماى . إذ أنى أريد أن ألقى الملائكة وأدخل الجنة تحف بى العظمة والأبهة بما يليق بمنزلتى ومقدارى ! ...

فانحنى القس على الأمير للمرة الثالثة وأسر له حديثاً . فقاطعه الأمير فى لهجة غاضبة :

— إذن ماذا أفيد من كونى ولياً للعهد ...

ورغبة منه فى عدم الإصغاء إلى حديث آخر أدار وجهه إلى الحائط وأنشأ يبكى وينتحب ...

محمد عبد الفتاح محمد